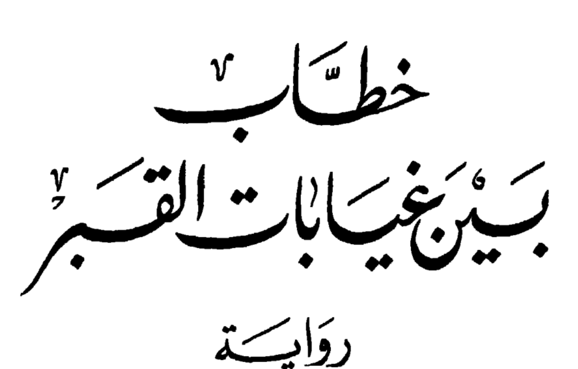
محمّد الفزاري

خطّاب بين غيابات القبر

رواية

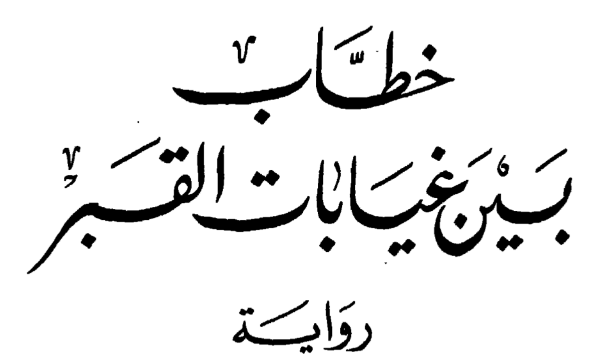


محمد الفزاري





محمّد الفزاري





ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com

بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-389-9

الطبعة الأولى 2013

المحتويات

إهداء

إلى أمي،

إلى حبيبتي،

إلى رفقاء الدرب،

إلى وطني المفجوع.

لوالدتي أقول: لا تخافي، إنَّ إرادتي القوية..

.. والشعلة التي تحرقني باستمرار

ستكونان العكاز الذي يسند قدميَّ الضعيفتين..

.. ورئتي المتعبة وصدري الذي يزفر.

تشي جيفارا

خارج النص

هُناك الكثير من الأوهام المكدسة تنتظر من ينتشلها من غيابات الجهل والوجل والخور والذل. هُناك في وطني حيث تكتنفه أعين المتربصين ودهاء الفاسدين ومكر الخبثاء.. واجبٌ مقدسٌ مغبونٌ به كل من حالفه الحظ وتحرر من ذلك الوهم.

هُناك في وطني أجسامٌ خرساء وأرواح طرشاء وعقولٌ عمياء، الخوف لغتهم والأمية البلهاء شعارهم، تظنهم أحياء بل هم أموات لم يجدوا من يدفنهم فبقيت جثثهم مطروحةً تحت شمس الحرية، يرتعشون أمام عاصفة التغيير، رائحتهم

العفنة صعدت إلى قلب السماء لتشكل درعًا من السحب السوداء تمنع بزوغ خيوط شمس الكرامة والعدالة.

أنتَ من حالفكَ الحظّ احمل معولك وأرح هذا الوطن من نتن تلك الجيف، وحرر تلك الأرواح من خلف قضبان ذرعها وهوانها، وأوقد فتيل المصباح لتنير الطريق لتلك العقول التائهة، عقولٌ تكالبت عليها لعنة الزمن ولعنة الجهل فانتشرت بين خلاياها خلايا خبث مسرطنة كالنار الهشيم، ومن لم تصبه سهام اللعنتينِ أصابتهُ مُجبرًا إحداهما فكان سرطانهُ حميدًا.

أنتَ أيها المحظوظ كُن طبيبًا وشمِّر عن ساعديكَ واتجه إلى غرفة العمليات وحرر تلك العقول من دائها لكن لا تغفل ولا تتغافل. الورم كبير لذا أكثر من تحضيرك.

فإلى متى صمتي وحولي أمة.. يلهو بها السلطان والدرويش

هذا بسبحته وذاك بسيفه.. وكلاهما مما تكنّ يعيش!!

محمد إقبال

تمهيد

في كل بقعة من بقاع العالم، في كل أرض لها حدود سياسية وتسمى وطنًا، هنالك أشخاص حالمون.. أحلامهم ليست كبقية الآخرين، تتعدى ما يحلم به الآخرون من أحلام شخصية فقط.

إنهم يحلمون بأوطان جديدة تتسع للجميع وللجميع.

في إحدى تلك البقاع من العالم التي تكسوها أثواب من الفساد تختلف ألوانها وتتعدد أشكالها، هنالك رجل حالم يسمى «خطّاب».

خطاب رجل عادي، شكله عادي، طوله عادي، نال قسطًا من الدراسة لمرحلة عادية، لكن.. حبه لوطنه غير عادي، ويحلم بوطن جديد غير عادي.

جميل أن يموت الإنسان من أجل وطنه..

.. ولكن الأجمل أن يحيا من أجل هذا الوطن.

توماس كارليل

يسقط

كان نائمًا في غفلة واقع مرير، هو مجرد نسخة من آلاف الرجال والنساء. صغار وكبار، فكرة واحدة، منطق واحد، تخطيط وعمل، أناس مجهولون ليبقى خطاب ونسخه نائمين. أهداف واضحة، غايات متداخلة، مصالح متبادلة.

يصحو خطّاب فجأة من نومه، لكن الكثير منه لم يصحُ، هناك سبب. .أعماق خطّاب تحوي بركانًا هامدًا لم يكتشفه من قبل نتيجة ترسبات منذ نعومة أظفاره، يكبر وتكبر معه الظروف وتكثر معه القصص، مواقف مرة.. أحاسيس.. مشاعر.. يتخللها الكثير من الألم.

غرفة زرقاء. .تقاطعات بيضاء، فوق السرير.. أحلام سريعة.. ثوان معدودة.. سلطة.. وزير. يكبر الطموح

أحيانًا.. أحلام غير مشروعة.. قمة الهرم.. تكبر معها السلطة.. ويكبر معها الإصلاح والتغيير.

صوت مرتفع - «خطاب.. خطاب استيقظ ستتأخر عن الجامعة» أم خطاب تحاول أن توقظه، نبرة الصوت ترتفع ويرتفع معها الحلم، قطرات ماء وتبخرت معها الأحلام.

خطاب يتجه إلى دورة المياه حاملًا منشفته، يقضي حاجته وهو يسترجع شريط الأحلام، يتجه نحو الصنبور لينظف أسنانه والمرآة أمامه، يرى تاجًا على رأسه.. خطاب يبتسم.. يضع الفرشاة جانبًا ويغسل فمه ثم يرجع يتأمل نفسه مرة أخرى في المرآة. .نظرات ثقة وتحدٍّ.

«يا أيها المواطنون الأعزاء، إننا نعلن.. أن هذا العام عام الإصلاح والتغيير ومحاربة الفساد، لننطلق نحو التنمية والإنماء واضعين أمامنا ونصب أعيننا رفع علم الوطن في المحافل الدولية، لنترك بصمة عالمية في الخارطة السياسية والاقتصادية والعلمية والرياضية».

خطاب يلقي كلمة جماهيرية.

يعود إلى الواقع.. صمت مطبق، يتناول الفرشاة ويعود ينظف أسنانه مرة أخرى، قبل أن ينتهي يتأمل نفسه في المرآة.. لا وجود للتاج.. ضحكات.. قهقهات عالية وهو متجه نحو حوض السباحة ليستحم.. ضاحكًا على نفسه متذكرًا الخطاب.

زفراتٌ عالية ـ آآآآه ما أجمل الماء الساخن في هذا الصباح البارد!

خطاب يُغمض عينيه ليعود إلى أحلامه مرة أخرى.. مستقبل.. رؤية.. العالم المتقدم.. تمضي الدقائق وخطاب ما زال يغطُّ في أحلامه، صوت قوي.. طرق على الباب، «خطاب ستتأخر عن الجامعة».

أم خطاب مرة أخرى تقوم بإحدى وظائفها المُعتادة، مسؤوليات لا تنتهي.. طبخ.. تنظيف.. غسل.. تربية الأبناء وأعمال كثيرة، ما أعظم الأم! كما هي العادة، خطاب يجد الفطور جاهزًا، يحمل كتبه متجهًا نحو الجامعة، يصل إلى الباب.. يتذكر أنه لم يقبّل أمه قبلة الصباح، كانت مهمة تلك القبلة للطّرفين.. خطاب الابن المدلل لأمه.

ستة طلاب وثمان طالبات.. خطاب جالس بجانب الجدار في الخلف إلى يسار الفصل، المكان المفضل لخطاب، الملل يتسلل إلى خطاب بعد أقل من ثلث ساعة من بدء المحاضرة لتبدأ الخربشات، عيناه ترمقان المُحاضر.. جسمه عالق بين جدران الفصل وروحه تحلق هائمة في سماء حريته.. تقاطعات كثيرة.. أخيرًا يرسو على شاطئ الحب.. ليسقط مغشيًا عليه منتقلًا إلى عالم آخر.

أحبها ولا أعرفها، متى سألتقيها لأمنحها حبي.. لأهدي إليها قلبي، لأقول لها أحبك جدًا يا شمعة

حياتي.. متى! متى تشعلين نار قلبي بحبك وعطفك ودفء كلماتك! حبيبتي متى تضمينني إلى صدرك وترويني بحنانك وأرشف من شفتيك ما يُسكر الدنيا ويرويها، وأداعب نهديك وأخوض معركة يكثر بها الكر والفر!

«سنكمل ما تبقى في المحاضرة المُقبلة».

هذه العبارة كانت كفيلة بأن تعود بخطاب إلى واقعه ليتنفس الصعداء، تستمر الحال بخطاب في المحاضرة الثانية والثالثة. ينتهي اليوم الدراسي. الساعة الخامسة عصرًا، خطاب يتجه إلى حريته.. شوق كبير،برغم أنه بالأمس كان هناك إلى ما بعد منتصف الليل، الحال نفسها تتكرر منذ أكثر من شهر، خطاب يصل وأول ما لقطه سمعه..

يسقط.

يزعم أهل الحكم أن بلادهم ليس بها سجناء الرأي..

.. السجون بها فقط سجناء الرأي الآخر.

سليم عزوز

محمية صراصير

الساعة تشير إلى الرابعة والنصف، ينطلق خطّاب مودعًا أهله بنظرات شكٍ في الفراق، أمه وأخته الصغيرة كان نصيبهما أكبر. قبلتان واحدة على الرأس وأخرى على الخد.

إلى الوقفة الاحتجاجية الصامتة لليوم الثالث على التوالي، رغم تهديد رجال الأمن والشرطة بالاعتقال منذ اليوم الأول مع أن العدد في ذلك اليوم لم يتجاوز ثمانية أشخاص، لكن تضحية وإصرار خطاب ومن معه دفعهم إلى عدم التحرك من المكان حتى تنتهي الساعة المُتفق عليها وإيصال رسالتهم التي كان مضمونها التنديد واستنكار الاعتقالات التي حدثت والمطالبة بحقهم الدستوري.

للأسف لم يخب ظن خطاب وحدث ما كان يتوقعه،

ما هي إلا نصف ساعة منذ بداية الوقفة، وإذا بسربٍ من الغربان السوداء بغتة تسوَّرالجمع بجدار أسود دون سابق إنذار.

ران بعدها صمتٌ استمر بضع ثوان يقاطعه صراخ والكثير من اللغط فحواه. . .

«اركبوا الباصات، لا يوجد لديكم خيار آخر. . لقد أنذرناكم مرتين مُسبقًا».

لا أحد يتزحزح من مكانه. الكل صامت وجامد، بدأ الجدار يضيق ويضيق التنفس معه أكثر، تجرأ خطاب وبضعة أشخاص على رفع اللوائح الدستورية عاليًا. . بدأ الدفع من الخلف ليبدأ معه الصراخ من الطرفين.

تحرك ـ حسبي الله ونعم الوكيل ـ يداك إلى الخلف ـ الله أكبر ـ اركب الباص ـ إن الله مع الصابرين.

جميع من في الباص مُقيدٌ من الرجال والنساء في باص آخر، الباص يتجه إلى مكان مجهول حتى الآن.

خطاب يحدث نفسه ـ أخيرًا جاء الاعتقال يا خطاب، أخيرًا أصبحت الأصفاد في يديك، أخيرًا سيطلَق عليك لقب «المُعتقل خطاب»، لكن أهلي وأحبتي. . ماذا عساهم فاعلون بعد هذه المصيبة؟!

يُقاطع نفسه مباشرة مُستنكرًا ما قال ـ أيُّ مصيبة تتحدث عنها يا خطاب؟! أنا أتشرف بهذا الاعتقال، لقد

خرجت من أجل الوطن، من أجل حرية التعبير، من أجل الدستور.

الصراع يستمر.. يتصور أمامه وجه أمه الحزين يبكي حرقة على ابنها «المُعتقل»، ما ذنب أمي في كل هذا؟!

كاد هذا المشهد يُلقي به إلى مُستنقع الإحباط لولا صرخة من مقدمة الباص تُحلق بروحه وأرواح كل من في الباص عاليًا.

تكبير

الله أكبر

تكبير

الله اكبر

خطاب يتفحص وجه كل من في الباص محاولًا اكتشاف ما يفكرون فيه، حاول أن يلتقط صورة لوجه أحدهم يقول: «يا ليتني لم أكن هناك اليوم».

لكنه لم يجد.

جميع الصور تقصُّ أحلى القصص وتروي أحلى الروايات برغم اختلاف أشكالها وحجومها وعناوينها إلا أن مضمونها الأساسي كان ـ أنا هنا لنصرة الحق، وقيودكم سأكسرها بإيماني بالقضية ولن تصبح سدًا منيعًا أو عقبة أمام مواصلة طريقي ولن تُقيد عزيمتي، ولن ولن ولن....

كأنَّ خطابًا بدأ يستمد طاقته من تلك القصص

والروايات وماهي إلا لحظات حتى بدأ التأثر يطفو على وجه خطاب.

وقف محاولًا الانتصاب في مكانه في مُنتصف الباص بجانب الشباك الحديديّ رغم القيد الذي يحيط بيديه من الخلف.

الله أكبر

الجميع ـ الله أكبر

ظلّ يكررها أربع مرات..

يرجع ثم يجلس على الكرسي لكن بروحٍ مختلفة.. روح تكسوها نشوة الانتصار، انتصار على الذات وانتصار آخر على أعين رجال الشرطة الثلاثة في الباص.

يتكئ بجبهته على الشباك الحديدي مبتسمًا وعينه على قمم الجبال الشامخة على جانب الطريق، برؤية تلك القمم على ذلك الطريق.. تبين المصير، مصير خطاب ورفاقه.

إلى المعلوم.. تفتيش.. إلى العنبر.. إلى محمية الصراصير.. صلاة المغرب والعشاء.. تحقيقٌ وتصوير.

خطاب ومجموعة من رفاقه يُضربون عن الطعام والدخول إلى تلك المحمية، لتستمر الحال بهم حتى ظهر اليوم التالي بتلقي أوامر بنقل الجميع إلى مكان آخر أنظف بقليل، لكن الإضراب يستمر، ينقضي هذا اليوم ليستقبل

الجميع اليوم التالي بتحقيق بشكل فردي يستمر من الصباح حتى بعد المغرب.

أمام العنبر في الساحة الخارجية، خطاب ومجموعة من رفاقه انتهوا من التحقيق وأجسادهم تصرخ من كثرة راحة النوم ورائحة العنبر،يقتلون الوقت بالحديث، يقاطعهم قدوم أحد رجال الشرطة حاملًا ورقة، ينادي بأربعة أسماء من بينها اسم خطاب.

الكل يتساءل: لماذا؟

الشرطي: لا أعلم

يخرج الأربعة بعد توديع الجميع إلى المجهول ليستقبلهم باص أسود كبير، أصفاد حديد. .رجال في لباس مدني وعسكري أسود.

في الباص من خلف الشباك الحديدي الذي يفصل الركاب عن مقدمة الباص، الأربعة يتساءلون ـ إلى أين؟

إلى المجهول.

إن الظلم يجعل من المظلوم بطلاً..

.. وأما الجريمة فلا بد من أن يرتجف قلب صاحبها

مهما حاول التظاهر بالكبرياء..

عمر المختار

إلى المجهول

في غرفة تغمرها الزرقة طولها ثمانية أمتار وعرضها نصف الطول، طاولة جميلة في المنتصف.. ثلاثة كراسٍ.. خطاب ينتظر داخلها.. لم يستطع الجلوس.. مازال واقفًا وعيناه على الباب.. الدقائق تتأرجح.. لا جديد. تعب خطاب من الوقوف، يحاول الجلوس لكن دون جدوى، زادت سرعة دقات قلبه، يقف مرة أخرى.. لا جديد. أكثر من ساعة تمر.. خطاب لم يعتد أن ينتظر كثيرًا. كان الانتظار متعبًا جدًا له.

كانت ساعة مجهولة، لم تكن ساعة زمانٍ لحدثٍ مفرح لتمضي الثواني والدقائق في لمح البصر، ولم تكن

ساعة زمان لحدث مفجع لتمضي في سرعة السلحفاة القاتلة.

بعد ثلاث ساعات يستيقظ خطاب على صوت مرتفع به غلظة وكره:

انهض. . انهض

خطاب نائم. . غلبه النعاس بينما كان ينتظر، كانت رحمة السماء عليه أن ينام.

رجال ملثمون. . أكتاف عريضة. . لباس أسود.

قف ووجهك إلى الجدار. . افتح رجلك. . ضع يديك خلف ظهرك.

خطاب يُطبق أهم قانون تعلمه في دوراته العسكرية التي حضرها مسبقًا «نفذ ثم ناقش». فجأة يتحول العالم إلى سوادٍ دامس أشد من حلكة الليل وخطاب مازال في صمته الذهبي.

يدان تُمسكان خطاب بشدة من مرفقيه ـ تحرك.

بدأ خطاب يخطو خطوات بها نوع من الثقل، خطوات مجهولة. . غامضة. . مترددة. يدان تدفعانه بقوة، توجهانه يمنة ويسرة. . صوت مجهول يخترق الظلمة يصل إلى أذن خطاب:

انتبه أمامك سلّم، انزل. . مرة أخرى أيضًا. . ثلاث خطوات إلى الأمام. . قف. . اصعد.

خطاب مازال يُطبق المثل المعروف بحذافيره: السكوت من ذهب.. في الحقيقة لم يكن صامت اللسان فقط، بل صامت التفكير والإحساس أيضًا.

يقف متسمرًا..ثانية..ثانيتان.. ثلاث ثوان.

مرة أخرى صوت يجتاز الظلمة ـ ارفع رجلك اليمنى واخفض رأسك..اجلس.

يدان تحولان أصفاد الحديد من الخلف إلى الأمام لتصلها بسلسلة حديدية من أسفل الكرسي.

أصوات صاخبة جدًا.. موسيقى.. أغانٍ خليجية.. راشد الماجد.. «يا غدارة».

خطاب مازال غارقًا في صمته..العالم يتوقف.. لا جديد.

عقارب الساعة فقط تتحرك.. ظلمات فوق ظلمات. عينا خطاب مغمضتان.. يُفكر في المجهول.. نصف ساعة تمضي، تتحرك الأرض من تحت خطاب وتتحرك معها مشاعر خطاب وعقله.

أين أنا؟

أين يتجه بي؟

بعد استحالة إجابته عما طرحه على نفسه من تساؤلات..

خطاب بدأ يستعيد شريط ذاكرته. يتذكر كل لحظة حدثت بعدما استيقظ من النوم.

خطاب بدأ يشك في نفسه..

أنا في حلم دون شك..

بدأ يتلمس ما حوله..أيقن أنه في علم

أسئلة كثيرة تنهال على عقل خطاب ـ بالأمس كنت نائمًا مع حبيبتي.. فراش حرير.. مخدة ريش.. والآن على كرسي مجهول! غطاء أسود! أصفاد حديد!

ماذا فعلت؟

من جلس قبلي على هذا الكرسي؟

هذه الأصفاد كانت حول أي يد قبل أن تصل إلى يدي؟

يُقاطعه ألم قوي في الرأس.. خطاب يفتح عينيه.

أين أنا؟؟!

ليست هناك مسيرة سهلة إلى الحرية..

..ويستوجب على الكثير منا عبور وادي الهلاك

مرارًا وتكرارًا

قبل أن نبلغ قمتنا المنشودة..

نيلسون مانديلا

لا وجود لمرآة

فوق السجادة يؤدي حق الرب، خطاب يصلي صلاة الفجر. فرغ من الصلاة.. تناول المصحف عن جانبه. كان يقرأ القرآن كثيرًا في الزنزانة، أحيانًا يتجاوز الستة أجزاء.

في ذلك المكان.. ولأنك مقبور في مصيرك المجهول، تتداخل وتتشابك عليك كل الظروف، تقرأ القرآن كثيرًا ولا تعلم لماذا وما هو السبب وراء ذلك، هل هو التقرب من الرب لطلب رحمة ومصلحة موقتة؟ أم هو بسبب الفراغ الطويل حيث لا يوجد ما يفعله المُعتقل هناك غير التحقيق والأكل والنوم والصلاة والتسلّي بالقراءة؟ أم لأن السجن الانفرادي يزيد جرعة الإيمان في داخلك لتتذكر

ربك أكثر بمشاعر أقوى! أم أن تعوّد القراءة هو ما يجبرك على قراءة القرآن لتحصل على جرعة من الكلمات المطبوعة وتشمَّ معها رائحة الحبر!.

كاد ينتهي من جزء إذ قاطعه صوتٌ من فتحة الباب، مُلثم وعدهُ بالأمس أن يأخذه إلى التهوية وقت الشروق، بعد حديثٍ وديٍ أفصح فيه خطاب أنه يفضل الخروج للتهوية بعد صلاة الفجر.

من المفارقات.. كان خطاب لا يخرج إلى التهوية إلا بشرط، المحروس يشرط على الحارس، الشرط أن الملثم الذي يأخذه إلى التهوية يجلس معه ليتبادلا الحديث، يريد أن يُفضفض.. شخص ينصت إليه حتى لو كان الشخص الذي يسمعه يجهل ما يقول.

وصل خطاب إلى ساحة التهوية، فُك القيد.. الظلمة تزول. أبو تركي الحارس المُلثم بالأمس تجرأ خطاب وسأله عن كنيته، لا وجود للأسماء في ذلك المكان، أبو تركي رجل فوق المتوسط طولًا، مفتول العضلات.. تميزه شامة على رقبته.. طيب القلب. منذ وصوله إلى ذلك المكان المجهول.. أحسَّ خطاب بالراحة.

أبو تركي: خذ راحتك تجول في المكان.. سأرجع إليك بعد دقائق.

خطاب: طيب شكرًا.

طيب.. جزاك الله خيرًا ـ كلمات خطاب المفضلة في ذاك المكان المجهول.

بدأ خطاب بالمشي بمحاذاة الجدار.. طوله 8 أمتار، كان يستغفر ربه في كل خطوة. وصل إلى النهاية.. ستون خطوة.. يتجه يسارًا.. يصل إلى النهاية.. اثنتا عشرة خطوة.. كرسي بلاستيكي أبيض في المنتصف، يجلس خطاب عليه، عيناه في السماء.. شباك حديدي أسود.. دقائق تمضي.. خيوط الشمس تبزغ.. النهار يتجلى. خطاب يرسم صورًا في السماء.. أمه.. أخته الصغيرة.. حبيبته.

يقف خطاب وهو يردد أبيات النشيد ـ لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحمى.. لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلما.. لبيك إن عطش اللواء سكب الشباب له الدِما.. لبيك.. لبيك.. لبيك...

يُقاطعه قدوم أبو تركي حاملًا كرسيًا بلاستيكيًا أبيض: كيف أصبحت يا خطاب؟

ـ الحمد لله.. بنعمة وعافية.. وجود أشخاص مثلكم في هذا المكان المقطوع.. يبعث في قلبي الألفة والطمأنينة.

أبو تركي: هذا واجبنا.

لماذا هذه الكاميرات في سقف أول هذا المكان وآخره؟ خطاب يسأل..

أبو تركي: ومن أخبرك أن تلك الأجهزة عبارة عن كاميرات!.

خطاب: الشكل يوحي بذلك..يقاطعه أبو تركي ـ لا تصدق كل ما تراه في هذا المبنى.

لحظات صمت.. خطاب يفكر في إحدى جلسات التحقيق، يفكر في كلام المحقق أبي عبدالله «أنت إمعة.. أشخاص تستغلك.. تنظيم سري.. معارضة.. منظمات دولية..أجندة خارجية.. تنظيم القاعدة».

الأفكار تتوارد...خطاب ما هي قضيتك؟ أبو تركي يسأل.

خطاب يزفر آهاتٍ.. آآآه قضيتي وما أدراك ما قضيتي.. قضيتي يا أبو تركي هي حبي المفرط لهذا الوطن.. هل تصدق هذا! أصبح الإفراط في الحب ممنوعًا.. زمن غريب.

أبو تركي: لم أفهم شيئًا.

ـ معذرة يا أبو تركي لكن لا أعتقد أنك ستفهمني.

أبو تركي: على كل حال.. أنا أعرف طبيعة الأشخاص الذين يُجلبون إلى هنا وأعرف قضاياهم.. نصيحتي لك ابعد عن الشر وغنِّ له.

خطاب: أخبرتك لن تستطيع فهمي وأنا لن أستطيع

أن أفهمك، أحيانًا تعجز الكلمات عن التعبير، تعجز أن تصف شعور الإنسان بصورته الحقيقية، لا وجود لمرآة تعكس ما بقلبي من إحساس إلا أفعالي، لكن إن استطعت أن تفهم هذه العبارة.. حينئذ ستدرك ماهية قضيتي.. «إن الفناء في الحق هو عين البقاء».

أنا إنسان تربيت في جو الكرامة، وسأموت في جو كريم..

.. ولا أحد مهما كانت سلطته يمكن أن يغلق فمي أو يكسر قلمي.

د.مهدي المنجرة

لم أغتصب

غير ملابسك ـ يد من فتحة صغيرة في الباب الحديدي تناول خطاب ملابسه.. الدشداشة.. المصر.. الوزار. الفانيلة.. يتناول خطاب الملابس من دون أن ينطق بأي حرف.

في ذلك المكان المجهول يُحرم السؤال، نفذ ولا تسأل فقط.. لماذا وأين؟! لا يعلم خطاب..

تكثر التوقعات.. أفكار تتسابق.. خطاب يغير الأفرول الأزرق.. الزي الرسمي في ذلك المكان.

لعله الفرج.. أكيد اليوم سيفرج عني.. خطاب يحدث نفسه مع ابتسامة خجولة.

لحظات تمضي.. الباب الحديدي يُفتح.. مُلثمان.. أصفاد حديد.. غطاء أسود.. ظلام دامس.. تنعدم الرؤية.. لكن الأفكار ما زالت تتوافد مُخترقة الغطاء الأسود سالكة طريقها في الظلمة الحالكة إلى عقل خطاب. ثلاثون خطوة مجهولة وبضع خطوات صعودًا ونزولًا.. فوق الكرسي.. أصفاد الحديد من الخلف إلى الأمام.. لوصلها بسلسلة حديدية ممتدة من أسفل الكرسي لتمتد معها لحظات صمت يقطعها من حين إلى آخر صوت مجهول يتساءل إن كان خطاب يتنفس بسهولة وارتياح.

تمضي الدقائق.. لا تقل عن ربع ساعة.. تتوقف السيارة نهائيًا بعد أكثر من وقفة خلال الطريق لبضع ثوان مجهولة السبب.. ما هي إلا لحظات وإذا بالنهار يبزغ.

رجل يرتدي الزي الرسمي يفكُّ السلسلة الحديدية مُبقيًا على الأصفاد.. الباب يُفتح.. خطاب يرفع رأسه إلى الأعلى.. «المحكمة الابتدائية».

خطاب يبتسم.. كانت ابتسامة قاتلة لكل من حوله.. رجال الشرطة.. رجال الأمن.. خطاب عزيز نفس لدرجة تستطيع أن تصفه بأنه بليد الإحساس.. لا يسمح لمن حوله أن ينظروا إليه نظرة شفقة.. يشمخ بكبريائه عاليًا.. ما أقوى أن تعرف روحك الابتسامة رغم أحزانها!

في مكتب صغير للأرشيف، خطاب ينتظر المحاكمة.. رجل الأمن.. أصفاد حديد.. باب مغلق.. تمر الدقائق.. أكثر من ساعة.. ساعتان.. خطاب صامد

فوق كرسيه لم يتحرك وهو يردد في سره الآية الكريمة ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وَقت المحكمة.. إلى القاعة.. قفص الاتهام.. ثمانية رجال.. امرأتان.. حشدٌ من الحضور..جمهور غفير..ستة محامون متطوعون.. القاعة تمتلئ.. القاضي يصرخ ـ يكفي أغلقوا الباب لا يوجد مكان، الطرق على الباب يستمر.. تبدأ المُحاكمة.. خطاب المتهم العاشر.. القاضي يوجه التهم ـ أنت متهم بتهمتين.. الأولى هي التجمهر بقصد الإخلال بالنظام العام والثانية عرقلة حركة المرور.

القاضي: ما هو ردك على هذه التهم؟.

خطاب: يا سيادة القاضي.. أنا بريء وأنكر التهمتين جملة وتفصيلًا، يا سيادة القاضي لو تسمح لي أود أن أشير إلى ثلاث نقاط، عندما كان يؤتى بي إلى هنا والأصفاد في يدي والغطاء الأسود يحتويني، طرحت على نفسي سؤالًا: ما هو الجرم الذي ارتكبته لأتعرض لهذه المعاملة! تمت الإساءة إليّ كمواطن وكإنسان أولًا، يا سيادة القاضي هل قمت باغتصاب حرمة هذا البلد بتجارة مخدرات أو قتل أو سرقة أو تخريب!

يا سيادة القاضي لو افترضنا تجاوزًا أن كلا التهمتين صحيحتان.. هل نستحق هذه المعاملة التعسفية غير الإنسانية منذ بداية الاعتقال في المُعتقل الأول المعلوم حيث كان مصيرنا زنزانة قذرة ورائحتها نتنة!؟ عندما تنظر

حولك يمنة ويسرة يخيل إليك كأنك في محمية صراصير. . الأرضية. . الأفرشة. . تحتضن الصراصير احتضانًا، لا أنسى الثلاجة التي أجبرنا على أن نشرب منها في البداية، هي الأخرى لا تقل حنانًا عن الأفرشة والأرضية، صحون وأكواب مضى عليها الزمن. . رائحتها كريهة جدًا.

النقطة الثانية يا سيادة القاضي، للأسف في اليوم الثاني من الاعتقال نُفاجأ بقنبلة إعلامية، الإعلام المقروء يتواطأ مع خصمي ويصدر بيانًا محتواه أنه تم الإمساك بأكبر المسيئين، خصمي يحكم علي بالإساءة أمام الملأ ولا يكتفي بذلك بل يصّرح بأننا أكبر المسيئين ضاربًا بالقضاء عرض الحائط.

النقطة الثالثة يا سيادة القاضي، لو افترضنا أن الشرطة ضبطت سبعة مجرمين متلبسين بجريمة سرقة، هل من المنطق وبعيدًا عن القانون الإفراج عن أربعة أشخاص ومحاكمة ثلاثة أشخاص فقط! هذا ما حدث في قضيتنا. . تم اعتقال 26 شخصًا متلبسين بالجرم نفسه كما يدعي أو يسميه خصمي. . لماذا أحد عشر شخصًا فقط يُحاكمون بينما الباقون أطلق سراحهم!

يا سيادة القاضي هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن القضية كيدية وتقصّد أشخاص وليس تنفيذًا للقانون. . . .

رُفعت الجلسة.

أعدكم بأن قضبان السجن ستصدأ قبل أن تصدأ
إرادتي وعظامي.

هايل أبو زيد

وضعية الجهاز

طالت الأيام. . الليل طويل، في زنزانة رباعية الشكل، باب حديد. . فتحتا تكييف. .سماعتان. . مصباح ملعون. . فراش واحد. . مخدة واحدة.

خطّاب يقضي يومه الخامس والعشرين في حبسه الانفرادي. الأيام تتشابه. . لا جديد. . الصباح نوم وتحقيق والمساء أرق وتفكير. . وأحيانًا بعض من التحقيق.

يقف خطاب متجهًا نحو الباب، يضغط الزر بجانب الباب. . يتكئ على الجدار. . ينتظر لفترة من الزمن ليست بطويلة. . مُقنّع يسأل من فتحة صغيرة في الباب ـ ماذا هناك؟

خطاب: شاي لو سمحت.

خطاب يشرب وعقله يُحلق خارج الزنزانة.. خارج الوطن.. بل خارج القارة، بعيدًا.. سبع عشرة ساعة.. الرحلة جوًا.. ثانية احتاجها خطاب ليصل إلى هناكِ وهو يشرب الشاي..

الجامعة.. الكازينو.. السينما.. النهر.. ذكريات من الماضي الجميل..

الجسر.. الجسر.. الجسر.. نعم الجسر.. خطاب يتذكر الجسر.. جسر الجامعة. نفد الشاي.. يعود إلى الوطن.. يطلب الشاي مرة أخرى.. مع أول رشفة يصل إلى الجسر مرة أخرى قبل أن يتذوق طعمها.. على هذا الجسر.. خطاب يتحدث ولأول مرة مع أول حب يفطر قلبه.. لم يطل الحديث.. مع انتهاء الجسر انتهى الحديث.. أخذ رقم الهاتف.. قصة حب تبدأ.

خطاب يضغط الزر ـ ماذا هناك؟ مُقنع يسأل..

خطاب: دورة المياه.

لحظات تمر.. ثلاثة أقنعة تدخل، خطاب قبالة الجدار.. كلتا يديه في الأعلى.. قدماه متباعدتان.. حذاء أسود بين قدميهِ.. أصفاد حديد من الخلف.. غطاء أسود.

يقضي حاجته..

يطلب الشاي مرة أخرى.. يتذكر كل لحظة قضاها مع عشيقته.. الاتصالات.. الجلسات.. الضحكات.. عينيها..

خطاب ينتهي من شرب الشاي، يستلقي على ظهره..
يتكئ برجليه عاليًا على الجدار وهو يردد بيت الشعر..

إن العيون التي في طرفها حورٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

خطاب يُغمض عينيه.. سرير ذهبي.. لحاف واحد.. مخدتان.. الوضعية الأولى.. الثانية.. الثالثة.. تنتهي الوضعيات.. خطاب مازال يحلم.. يفتح عينيه.. يتخيل حبيبته فوقه تتكئ على رجليه.

خلف قناع الجليد الذي يضعه الناس..

..هناك ضربات قلب ينبضُ نارًا.

باولو كويلو

القناع الأخير

ينقضي اليوم الأول.. الثاني.. الثالث.. الأسبوع الأول.. الثاني.. الثالث.. في آخر الأيام.. اليوم الثامن والعشرون.

في غرفة طولها وعرضها أربعة أمتار.. طاولة في المنتصف.. خلفها كرسيان دائريان.. أمامها كرسي مثبت على الأرض بإحكام.. يقابله في الأعلى ثلاثة مصابيح قوية الإضاءة.. باب حديدي يحتوي على فتحة زجاجية صغيرة تُغلق من الخارج.. في الجهة المقابلة زجاجة عاكسة للرؤية طولها متر ونصف متر وعرضها متر.. تحتها لاقط صوت.. السقف مليء بمصابيح مربعة الشكل.. يتوسطها جهاز تكييف.. سماعة.. أصوات صاخبة.

بعد خمس ساعات، دخل أبو سالم كعادته بابتسامته

وترحيبه الحار، ابتسامته تخفي خلفها الكثير من الأقنعة. أبو سالم متوسط الطول والمنكبين يميل إلى البياض، وجهه مميز لاحتوائه على شيءٍ غريب.. أظنه يُسمى نمش الجلد أو شامة.

خطّاب خلف الطاولة مُستلقٍ على الأرض.. أجهده تعب الانتظار، ينتبه خطاب إلى وصول أحد المحققين، يتبادلان التحية.. كما هي العادة.. كل شيء على ما يرام، غير أن واقع خطاب يقول عكس ذلك، لكن هي عادة مزيفة أرهقت الجميع يُقال إنها تقرب إلى الرب أكثر.

جلس خطاب على كرسي الاتهام.

أبو سالم: لنكمل الحديث في حوارنا السابق.

التحقيق يسمى حوارًا.. كل شيء مغلف بالأقنعة.

خطاب: قبل أن نبدأ أود الحديث في موضوع آخر.

مقبض الباب يتحرك..مُحقق آخر يدخل، طوله ومنكباه أقل من المتوسط.. حنطي اللون.. أمرد الوجه.. يحمل في يده مذكرة وقلمًا.. ألقى التحية وجلس على الكرسي الآخر،

خطاب: وجه جديد يُضاف إلى قائمة المحققين.. أبو من أستطيع أن أطلق عليك؟

أبو خالد.... قاطعه أبو سالم ـ تفضل أكمل حديثك خطاب.

خطاب: أوصل رسالة إلى أبي أحمد وقل له هذه العبارة «شعور متبادل»

علامات الحيرة على جبين أبي سالم: لم أفهم

خطاب: لا عليك هو سيفهمك إن أراد ذلك.. لكن باختصار حول طبيعة نظرته إلي.

أبو سالم: على كل حال لنكمل حديثنا الماضي..... يقاطعه خطاب ـ أود الحديث في البداية.

أبو سالم: تفضل.

إذا لم تخنّي الذاكرة والقانون يسري علينا وعليكم.. أقضي أيامي الأخيرة في هذا المكان المجهول، لأن القانون يسمح باحتجاز أي شخص هنا لفترة محددة.. لذا أود الانتهاء من لعبة الأقنعة.. سأستخدم القناع الأخير لعله الأقرب إلى حقيقتي.

أبوسالم صامت اللسان وجسده يتكلم.. أبو خالد منهمك في تسجيل أدق المعلومات والتفاصيل.. يُكمل خطاب ـ طوال الفترة الماضية كنت أنوع في الأقنعة، أتصنع بعضها من البداية.. وأجبر على البعض الآخر، كان همّي الوحيد هو توصيل رسالة وفهم رسالة أخرى، ومحتوى رسالتي أني مواطنٌ محب لوطني، وعملت وسأعمل جاهدًا على رفع علم وطني.

وقد فهمت من رسالتكم خلال الفترة الماضية من جلوسي مع واحد وعشرين محققًا أو أكثر لا أذكر العدد

بالضبط تناوبوا على التحقيق معي في أكثر من خمسين جلسة تحقيق كانت تمتد لساعات، كان مضمون كلامكم نحن هنا للحماية.. للدفاع عن السلطة، للتحسين.. للتجميل.. لتبرير كل تصرفاتها وإن كانت خاطئة ومضمونها خاطئًا وتخالف معتقداتكم كأشخاص، لأنها وظيفتكم

يقاطعه أبو سالم محاولًا التبرير كما هي العادة.. خطاب لايتوقف ـ لأول مرة أتيقن أن التفريط في التفكير الإيجابي والنظرة غير الواقعية إلى موضوع معين.. يتحول إلى صفة سيئة وسلبية يكون ضحيتها المجتمع.

خطاب يتوقف.. أبو سالم يبرر.. خطاب يعود إلى أحد أقنعة الماضي.. تمر أكثر من ساعتين.. ينتهي التحقيق.. خطاب يستلقي على الأرض.. يغطُّ في نوم عميق.. فراش حرير.. حضن دافئ.. قبلة حارة.. وقت الغداء.. مُقنع أسود ـ انهض انهض.

إن الإنسان وإن ولد حرًا..

.. يظل عبدًا لقسوة الشرائع التي سنها آباؤه وأجداده.

جبران خليل جبران

وقاحة محقق

بعد مرور أكثر من ساعتين انتظارًا في المبنى المسؤول عن التحقيق الأخير قبل تحويل القضية إلى المحاكمة، مع وجود الكثير من الأعين يدخل خطاب على رئيس المحققين، لكن قبل ذلك قصة ظريفة حدثت لخطاب مع إحدى تلك الأعين التي كانت لا تلتفت إليه حتى لبضع ثوان متواصلة، مخافة ورهبة وغرابة في التصرف نتيجة الأوامر، بسبب شوق خطاب إلى القراءة وانقطاعه نهائيًا عما يحدث في الخارج من أحداث وتفاصيل.. بعد مضي فترة من الزمن من جلوسه لاحظ وجود مجموعة من المجلات فتشوق أن يقرأ.

خطاب يُحادث نفسه ـ الآن هي فرصتك وأنت خارج

ذلك المكان المشؤوم، أعتقد أن هذه الأعين ستتعاطف معي ولن يضيرهم شيء لو قرأت الآن إحدى تلك المجلات، لكن. . كيف سأقرأها وهي تبعد عني كل تلك المسافة! صحيح أنها مجرد بضعة أمتار لكن. . الآن الوضع مختلف وأخاف أن أنهض فتنزعج تلك الأعين من تصرفي وأحرم نهائيًا من القراءة!.

ظلّ خطاب يفكر في طريقة لكن لاجدوى.

يلمح خطاب وصول موظف من أمن المبنى كما تشير ملابسه، فورًا خطاب يستغل الفرصة:

لو سمحت أخي هل من الممكن أن تناولني إحدى تلك المجلات؟.

كان الرد سريعًا. . نباحًا وعواء من كل مكان.

يتجه خطاب إلى مكتب رئيس المحققين برفقة أحد العيون مُمسكًا بذراعه اليمنى كأنه عرس لرجل مسيحي يدخل هو وزوجته إلى الكنيسة ممسكًا بذراعها.

مكتب فخم. . إلى يسار المكتب لوحة معلقة على الجدار مكتوب عليها «كلمة الحق لم تبقِ لي صديقًا». . بجانب الطاولة بشت أسود معلق.

خطاب: السلام عليكم

لا رد.

ما هذا الوجه الجهم الذي لا يبشر بالخير!.

المحقق: أنت موجود هنا للتأكيد والتوقيع على أقوالك التي أدليت بها في محاضر الاستدلال مُسبقًا في المكان الذي أتيت منه.

خطاب: إن شاء الله.. لكن بما أنكم تمثلون القانون أعتقد أنه كان من الواجب عليكم أن تطبقوه بحذافيره، لذا أنا أطالب بحقي الدستوري والقانوني بوجود المحامي معي في جلسة التحقيق.

المحقق يجيب بكل وقاحة: لماذا لم تخبر محاميك إذن؟

خطاب يهامس قلبه ـ ما أوقح الخانعين وما أذل من باع رجولته وضيع الحق إرضاءً لهوى السلطة وهوى نفسه.

المحقق: تكلم لا داعي لوجود المحامي فجميع من سبقوك تكلموا، وهذه إجراءات شكلية لا تخف.. موضوعكم سهل ولن يتم تحويله إلى المحكمة، اعترف فقط بكل شيء وقل الصدق، والصدق منجاة.

بينما كان المحقق يُعيد تلك الأسطوانة التي ملت وشبعت منها أذن خطاب، رجع خطاب يهامس قلبه ـ وها نحن قد بدأنا بنهج الترغيب الحقير، انتقل..انتقل أيها المحقق إلى نهج الترهيب وخلصنا.

خطاب يجيب: ما زلت متحفظًا عن الكلام إلا بوجود المحامي.

المحقق يأمر الشخص الجالس قبالة خطاب وهو

المسؤول عن طباعة الأقوال أن يثبت أقوال خطاب برفضه التحدث ويأمر تعسفًا بتمديد حبس خطاب إلى سبعة أيام إضافية وذلك عقابًا لعدم تعاون خطاب في التحقيق كما صرّح المحقق.

المحقق يسأل خطابًا: ما زلت مصرًا على رأيك؟!

خطاب: نعم.

يوقع خطاب المَحضر و يخرج لتتلقفه تلك الأعين وتقوده مباشرة إلى السيارة الـYukon مع أصفاد الحديد المتصلة بأسفل الكرسي مع الغطاء الأسود.. إلى المجهول مرة أخرى.

عصر اليوم التالي تبدأ مرحلة جديدة لمعاناة جديدة.

كما هي العادة يتناول خطاب الدشداشة..الوزار.. المصر من فتحة الباب.

خطاب لم يسأل المُلثم لماذا..ليس لأنه يعلم أن السؤال مُحرم في ذاك المكان لكنه يعلم أنه ذاهب إلى مُعتقل آخر مجهول الهوية.

بضع دقائق.. مُلثمان.. كيس أسود.. أصفاد حديد.. فوق الكرسي.. في النصف الخلفي من صندوق الشاحنة الـ - Van هذه الشاحنة مقسومة نصفين.. مُعتقل في النصف الأمامي و مُعتقل في النصف الخلفي ـ سؤال واحد فقط يدور في عقل خطاب..إلى أين؟.

يحاول أن يتناساه باسترجاع إحدى الذكريات الجميلة التي قضاها خطاب مع حبيبته في ليلة قمرية من العام الماضي على شاطئ الحب. .أخيرًا ينجح.

ثغرها. . أنفاسها. . طعم ريقها في فمه. . خصلات شعرها. . خصرها. . تفاصيل جسمها الناعم.

بدأت علامات مخدر ريقها تظهر على خطاب. .

حبيبتي. . اشتقت إلى أنفاسك. . اقتربي مني أكثر وأكثر حتى أشعر بأنفاسك وأقبلك. . ودعيني أثمل من ملامسة شفتي شفتيك. . أو دعيني أثمل من مداعبة يدي خصلات شعرك وخصرك. . أو دعيني أرقص بين فسحة نهديك وأغني أحلى الآهات. . أو دعيني أخض معركة وأنتصر وأغنم بكنزك. . أو أستشهد حتى أدفن بين فسحة نهديك.

تتوقف المركبة بضع دقائق ثم تسير لبضع دقائق أخرى، ثم تتوقف مرة أخرى لكن لثوان معدودة. . ثم تستمر بالسير حتى تتوقف نهائيًا، الباب يفتح. .السلسلة الحديدية تزول. . تبقى الأصفاد والغطاء الأسود ـ انزل.

ينزل خطاب وكل ما يراه هو العتمة والظلام الحالك ليبدأ معه خطوات مجهولة ويدان تدفعانه من الخلف مع الكثير من النزول والصعود في عدة محطات من السلالم.

يتوقف خطاب. . رجلاه متباعدتان. . العتمة تزول. . رائحة الجدار تتسرب إلى أنف خطاب من قرب الجدار. .

لا يرى شيئًا.. الأصفاد تُفتح.. اليدان في الأعلى.. خطاب متسمّر.. باب حديد يُقفل.

خطاب في حيرة من أمره.. ينتظر الأوامر.. ماذا بعد ذلك.. بطرفٍ من عينه اليسرى يختلس النظر ليتأكد من وجود أحد.. لا يرى أحدًا، المكان خال.

يُنزل يديه ويبدأ بتفحص المكان ليعرف هو أين وفي أي قبر سيدفن من جديد، المكان ليس بغريب.. شكل الزنزانة مألوف.. الرائحة نفسها والطولِ والعرض نفسهما.. المصابيح نفسها.. الباب نفسه والقضبان في فتحة الباب نفسها.

بجانب الباب في زاوية الزنزانة فراش وبطانية، شكلهما يوحي بقساوة المكان ورائحتهما النتنة تنبئ بالمعاناة القادمة، بجانب الفراش صحن بلاستيكي وكوب، رائحة الزرقة تفوح منهما، فوطة.. معجون.. فرشاة أسنان.. صابونة.. أشكالها غريبة غير متوافرة في الأسواق.

معاناة السجن الانفرادي تستمر. طول وعرض الزنزانة وكل ما تحتويه تجبر خطاب أن يفكر كيف يُهيئ نفسه للمعركة القادمة.

يخلع الدشداشة والمصر.. يأخذ الفوطة ويتجه إلى الحمام بلهفة ليستحم وكأن رائحة البراز والبول التي تملأ المكان تشده ليبدأ معها أولى خطوات التكيف مع الوضع الجديد.

من يتخلى عن حريته خوفًا على أمنه..

..لا يستحق حرية ولا يستحق أمنًا.

بنجامين فرانكلين

نسيم السجن

في زنزانة طولها عشرون مترًا وعرضها ثمانية أمتار.. تسعة مصابيح زوجية.. أربعة أجهزة تكييف.. فراش واحد.. مخدة واحدة.

كان خطاب مستلقيًا.. فجأة نهض واتجه نحو الباب الحديدي.. شدّه غروب الشمس الجميل.. وقف خلف القضبان الحديدية ونظرهُ مُعلق عاليًا نحو الشفق الأحمر ووجهه تملأه الابتسامة.. ابتسامة غريبة، ليست ابتسامة فرح بل هي ابتسامة دهشة وتساؤل ـ

ماهي الحرية؟ من هو الحر؟ من الذي يستمتع بحريته؟.. هل هو الشخص الذي يلعب؟ يركض؟ يسوق؟ يأكل؟ يقبل؟ يتبضع؟ يتمشى الآن تحت السحب الحمراء! أم أنا خلف هذه القضبان!؟.

سكت لبرهة كأنه ينتظر إجابة تحملها نسمات الهواء الدافئة التي تهف وجهه، نسمات أطلق عليها خطاب نسيم السجن، نسمات كانت كفيلة أن تعوّض خطاب عن نسمات البر والبحر. كان يقف لفترات طويلة خلف تلك القضبان وعينه مغلقة.. جسمه في الزنزانة.. لكن روحه تحلق بعيدًا.. تحلق في سماء حريته، أحيانًا يتمشى مع حبيبته على شاطئ الحب، وأحيانًا أخرى يتناول وجبة العشاء مع أسرته.. أمه تجلس إلى يمينه وأخته الصغيرة التي يحبها كثيرًا تجلس إلى يساره، وتارة يرى نفسه جالسًا خلف شاشة السينما مع أعز أصدقائه، وتارة أخرى في المكان نفسه في آخر مقعد خلسة يُقبل حبيبته في منتصف فيلم رومانسي.

فجأة.. خطاب بدأ يضحك، لم تكن ضحكات طبيعية، الصوت يرتفع.. قهقهات عالية.. أحد الشرطة يقترب.

خطاب.. خطاب ما خطبك؟.

لا إجابة.. الصوت يرتفع.. علامات الدهشة والاستغراب على جبين الحارس، اتجه الحارس نحو المكتب

سيدي، خطاب فقد عقله.. بدأ يهلوس.

ـ ماذا تقصد؟.

سيدي، خطاب.... قاطعه الضابط بوقوفه متجهًا نحو الزنزانة.

يقترب الضابط و يرتفع الصوت:

ولا بـــدَّ لـلـــيـــلِ أن يـــنـــجـــلـــي

ولا بــد لــلــقــيــدِ أن يــنــكــســر

خطاب يمشي ذهابًا وإيابًا من بداية الزنزانة حتى النهاية، وكلتا يديه في الأعلى وكأن أصفاد الحديد في يده.

الضابط يصرخ ـ خطاب.. خطاب.

أيتها الصداقة لولاك لكان المرء وحيدًا..

.. وبفضلك يستطيع المرء أن يضاعف نفسه وأن يحيا في نفوس الآخرين..

فولتير

كنز لا يفنى

خمس زنزانات. . خمسة صحون بلاستيكية. . خمسة أكواب زرقاء. . خطاب يصرخ من شباك باب الزنزانة الأولى. . الفرج قريب يا أخوان. .الكل يجيب ـ

يارب. . آمين.

العشاء يصل. . يصرخ خطاب مرة أخرى ـ شباب نلتقي بعد صلاة المغرب.

خطاب يتجه إلى المغسلة لغسل الصحن والكوب، الحارس يفتح الباب بمقدار ما يكفي لخروج الصحن والكوب مع كثير من التوجس والحذر.

ثلاث خبيزات من الجنسية اللبنانية.

عدس!..فول!..فاصوليا!.. غير معروف الأهم أنه يشبه الأكل المهروس

كوب من الشاي الأحمر.. مجهول الهوية

يتوضأ خطاب للصلاة.. يقرأ القرآن منتظرًا موعد الصلاة.

يضرب الجدار لزميله في الزنزانة المجاورة.. إنها إحدى وسائل التواصل هناك تقريبًا وفق طريقة مورس، يبدؤون بالصراخ.. يتنبه الثلاثة الباقون.. يكثر الصراخ ويتسع معه الأمل.. دعاء.. توبة.. نذر.. والكثير من الابتسامات والنكت.. نقاشات ساخنة.. اختلافات في وجهات النظر.. عشرة أيام تنقضي.. المشاهد نفسها تتكرر يوميًا مع خطّاب وزملائه في الزنزانات المجاورة.

في أيام قليلة، ينسج خطاب خيوط صداقة حقيقية.. لم يستطع تكوينها من قبل لسنوات.. أو لأن الظروف أجبرته أن يصنع هذه الروابط.. روابط ستظل سنوات..أو بالأحرى إلى الأبد.

خطاب وزملاؤه يؤكدون أن السفر ليس العالم الوحيد الذي من خلاله يتعرف الإنسان إلى معادن الآخرين.. هنالك عوالم أخرى.. عوالم ظروفها أقسى.. طعمها أمرّ. في السجن كل إنسان يظهر على حقيقته..هنا تتجلى كل معاني الإيثار.

خطاب يصرخ من قضبان الباب الحديدي ـ أتضور جوعًا.. هل من معين؟

الأهالي قد سبق لهم قبل يومين زيارة خطاب ورفاقه وسمح لهم بإدخال الفواكه والخضروات، الشيء الوحيد المسموح به أن يدخل من العالم الخارجي إلى عالم السجن في ذلك المكان المعلوم.

صوت يأتي من آخر زنزانة، «علي» صاحب الصوت الجهوري والابتسامة التي تملأ وجهه دائمًا.. أفعاله وأقواله دائمًا تعكس ما في قلبه ـ معي برتقالة وتفاحة وكمثرى.

روح الإيثار يصقلها السجن، يرسل كل ما لديه إلى خطاب.

صوت آخر بالكاد أن تسمعه، الزنزانة الرابعة.. «أحمد».. رقيق القلب، رقة قلبه يعكسها صوته النحيف، يغمره الأمل والتفاؤل ـ سأرسل إليك تفاحة.

صوت آخر قريب، الزنزانة المجاورة.. «نزار».. الصديق الأقرب لخطاب مكانًا ومكانة، الرجل المشاغب.. كثير النكتة.. فاكهة السجن.. الرجل العاشق.. من المفارقة، الرجل المشاغب نفسه هو خطيب ومفتي السجن، لكنه خطيب متخصص فقط في كل أمر متعلق بالنكاح وما شاكله من مواضيع ـ معي حبة موز وتفاحة وقطعة خبز

خطاب يختار قطعة الخبز.

«عبدالله» . .الزنزانة المجاورة لنزار والأب الروحي للسجن وصاحب الدعاء، يرسل أيضًا برتقالة.

شكرًا وجزاك الله خيرًا يا أبا خالد ـ خطاب يشكر الشرطي صاحب اللباس الأسود وهو يتناول الفاكهة والخبزة المتجمدة، من الجوع نسي أن يشكر أصدقاءه.

دقائق تمضي ليست بقليلة. . خطاب يصرخ ـ أحبكم في الله.

إذا جاء الحب من أول نظرة فهو سهم وإذا جاء من أول طبخة فهو «إيد هون»

ومن يومها توحدت دقات القلب مع خبطات الهون، مثلما تتوحد خزائن البنوك مع جيوب رجال الأعمال..

..والحكومة مع الحزب مع الأمن المركزي، والسلطة التشريعية مع السلطة التنفيذية مع الأراضي الصحراوية وعلبة السجائر مع قفص الطماطم مع صندوق الانتخابات، وأصبحنا دولة مصابة بمرض التوحد..

جلال عامر

زفرات شوق

مكان معلوم.. حبس انفرادي.. اثنا عشر يومًا يمضي ومازالت معاناة خطاب وزملائه مستمرة، بعد سبعة وعشرين يومًا كانت قبلها في مكان مجهول.. وبعد يومين آخرين في المكان المعلوم نفسه.

اليوم الثالث عشر.. اليوم الأول من شهر التوبة

والغفران. . لأول مرة في حياة خطاب يُقبل عليه الشهر وهو بعيد عن أسرته وأحبته، في هذا الشهر كان خطاب يقضي جل وقته مع أسرته بين أخوته، المرة الوحيدة التي ابتعد فيها في هذا الشهر كانت رمضان المنصرم. بعد الثلث الأول من الشهر، اتخذ قرارًا هو وصديقه بزيارة إحدى ساحات الحرية خارج الوطن، كانت مغامرة لا يقبلها العقل، لم يكن الطريق سالكًا إلى هناك، خطاب وصديقه كانا مُجبرين أن يسافرا جوًا إلى دولة أخرى ليستطيعا بعدها من هناك مواصلة طريقهما.

هناك. .لم يكن الأمن مستتبًا. . فوضى عارمة. . حكومة. . معارضة. . أطماع شخصية. . تظاهرات. . اعتصامات. . مسيرات مليونية. . جيش. . شرطة. . انشقاقات. . نقاط التفتيش تملأ المكان. . أصوات قصف في الليل كانت تقاطع تأمل خطاب للمدينة من على شرفة غرفته في الفندق فوق هضبة في أعلى المدينة.

من المفارقة. . ابتعاد خطاب عن أسرته وأصدقائه في شهر رمضان المُنصرم كان أحد الأسباب التي أجبرته أن يبتعد مرة أخرى عن أسرته في هذا الشهر الكريم لهذه السنة. . لكن الظرف مختلف. . ظرف قاسٍ لكل إنسان.

خطاب مازال صامدًا رغم قسوة الأيام في السجن. . لم يكن سجنًا طبيعيًا. . كانت تمارس فيه أشكال من التعذيب النفسي الذي لا يقل قسوة عن التعذيب البدني. .السجن الانفرادي وجهل المصير كان أصعبها.

الأسبوع الأول من رمضان ينقضي كأنه يوم واحد، لم يختلف فيه يوم عن غيره.. الأيام كلها متشابهة، خطاب ينام بعد صلاة الفجر حتى صلاة الظهر، بعدها يقرأ القرآن ويدون مذكراته على أوراق هربها له أحد الحرس، الساعة الخامسة يبدأ الصراخ.. خطاب وزملاؤه يحاولون الحديث بعضهم مع بعض من شباك الباب الحديدي، لتمتد هذه الحال حتى صلاة الفجر، يتخللها وقت الفطور والصلاة والسحور وأوقات راحة يتفق عليها الجميع لفترة قصيرة تعبًا من الوقوف.

الليلة الثامنة.. خطاب ينتهي من سحوره.. يرجع مرة أخرى إلى الشباك.. الساعة الرابعة والربع فجرًا.. وقت انتهاء الصراخ.. وقت صلاة الفجر.. وقت النوم.. متمددًا على فراشه.. النوم يطرق بابه.. يقاطعه طرق آخر على الجدار.. يتجه خطاب نحو الشباك.. يصفر مشيرًا إلى وجوده.. صفرات أخرى تشير إلى وجود جاره نزار.

نزار: لم أستطع النوم.

خطاب: ماذا هناك؟

قلبي يبكي شوقًا إلى حبيبتي، تضيق بي الحال عندما أتذكر مصيري المجهول، كنت على وشك أن أخطبها لولا وجودي هنا والآن.... يقاطعه خطاب ـ فهمتك.. تذكر أن الله مع الصابرين وغموض مصيرك هنا سيزول قريبًا ومعه سيختفي غموض مصيرك مع حبيبتك أيضًا.

صمت يخيم على الطرفين.

خطاب بدأ يتأمل شروق الشمس.. يعشق الشروق، ماهي إلا لحظات وإذا بروح خطاب تغادر الزنزانة نحو الشروق.. إلى شاطئ البحر تاركة جسده خلف القضبان.. جالسًا هو وعشيقته على رمال الشاطئ يتبادلان الحديث.. رأسها على صدره ووجههما نحو الشمس.. يتبادلان القبل بين الحين والآخر ـ أحبك.. أحبك.. أحبك.... بينما كان يقبل.. تقاطعه زفرات شوق.. شوق نزار إلى حبيبته.. لو وزعت على عشاق الأرض لأغرقتهم.

نزار: إنها توأم روحي..مكملة حسنًا وأخلاقًا ودينًا.

خطاب: تشبث بها بكلتا يديك وأسنانك.

بعد لحظة تفكير وهدوء من الطرفين خطاب ينشد..

قبّلتها عند الصباح فجاوبت
أفطرت يا هذا ونحن صيامُ
فأجبتها أنت الهلالُ وعندنا
الصّوم في مرأى الهلال حرامُ

إنها عمقت في نفسي كراهية الظلم وأكدت فترة الاعتقال..

..إن شرعية أي سلطة تقوم على العدل وإيمانها بحق الإنسان في الحياة بحرية.

أحمد ياسين

بعد خمسين سنة

في أول يوم من وصوله، خطاب ينقش بجانب قضبان فتحة الباب الحديدي «إن الفناء في الحق هو عين البقاء»، كلما أحس بالوهن والضعف، فإن لمحة بسيطة لتلك العبارة كانت كفيلة أن تزوده بالطاقة ليعود شامخًا بكبرياء، لتضمد جميع جروحه وتلملم جميع أوراقه التي على وشك السقوط والتناثر، رغم ذلك. كانت أيام بطيئة لثقل ظروفها القاسية ومعاناتها البائسة.

بعد خمسين يومًا مضت كأنها خمسون سنة، ليست فقط لصعوبتها بل أيضًا لانقطاع كل ما يدور حول العالم من أخبار وخصوصًا التفاصيل السياسية والرياضية التي

يفضلها خطاب، وهذه كانت أحد أساليب التعذيب التي مورست ضد خطاب ورفقائه منذ بداية الاعتقال مع اختلاف الأمكنة.

خطاب مستلقٍ على فراشه.. الساعة الثامنة مساءً.. صوت من الشباك

أحد الحرس: خطاب جريدة اليوم هل تريد أن تقرأ؟

خطاب: من أين؟!

الحارس: هل تريد أن تقرأ أم لا؟

خطاب: بالتأكيد.

ابتسامة تملأ وجه خطاب كأنه تلقى خبرًا مفرحًا، ينطلق مباشرة نحو فراشه.. ينكب على صدره والجريدة أمامه، يقرأ بكل تأنٍّ لا يترك كلمة.. ينتقل بين الأسطر بحذر.. يتناول العناوين بطريقة منتظمة لكي لا يسهو عن خبر ما.. جميع الأخبار أصبحت مهمة في تلك الجريدة، أحيانًا يعيد قراءة بعض الأخبار غير مرة.

خطاب غارق في الجريدة وملامح وجهه تتغير مع تنوع الأخبار، يكثر حديث النفس.. أسئلة كثيرة تدور.. أهمها ـ انظر ماذا يفعل العالم؟ إنجاز دولي، إنجاز شخصي، مهمة عمل، سفر، سياحة... وأنا!.

يضيق صدر خطاب ويرمي الجريدة بعيدًا، يستلقي على ظهره وعيناه في السقف، يرجع بشريط ذكرياته إلى الخلف، يتذكر جميع إنجازاته التي حققها، في البيت..

المجتمع.. المدرسة.. الجامعة.. يتذكر المرات التي مثّل فيها الجامعة وبلده.. ينهض عاليًا، صوت مرتفع.. صرخة من الأعماق كلها ثقة

روح «الأنا» كان عنوانها ـ أنا خطاب أنا موجود.

يتجه إلى مكان الجريدة ويتناولها ويرجع يستلقي مرة أخرى، يتابع القراءة زاحفًا بين أسطر الجريدة بثقل ممتع، تنتهي الصفحة ما قبل الأخيرة، ينتقل إلى رأس الصفحة الأخيرة حيث يفاجأ بخبر وفاة الناقد والشاعر المصري حلمي سالم صاحب «شرفة ليلى مراد»، القصيدة الجانحة التي اخترقت حواجز الثبات، الشاعر الذي صارع الموت حتى النهاية ولم يستسلم، ورغم مرضه إلا أنه لم يتأخر ولم يتقاعس عن ركب الثورة ليشم رائحة الربيع ويكحل عينيه ويعبر عنها بأحلى القصائد وبعدها يرحل، إنه الشاعر الرومنطيقي الثوري الذي عشق بنت جبيل وصاحب كلمة الحق في زمن النفاق.

إن الحرية لا يصنعها مرسوم يصدره البرلمان..

..إنها تصنع داخلنا.

مصطفى محمود

كل شيء زائف

أمام قضبان شباك الباب الحديدي خطاب يقف متأملًا روعة السماء وهي تودع سهام الشمس الحارقة ومستقبلة خصل الهواء الباردة، التي بدأت تغازل وجه خطاب بكل رقه ولين، يرضخ خطاب مستسلمًا لتلك الاغراءات ليبحر معها بعيدًا إلى شاطىء جزيرة في أقاصي الذكريات الجميلة.. ذكرى مرت عليها سنوات ومضت عليها أزمان، ذكرى لم يمكن أن تُنسى وتختفي بسهولة لأنها في ذاكرة خطاب منقوشة بأظافر حب وعشق.. «أحبك» أول مرة يتلذذ سمعه بها وهي تفارق ثغرها اللافح القرمزي.. «قبلة» على شفتيها المملوءتين أنوثة وإغراءات، خطاب يجد نفسه يلتهمهما التهامًا كأن لسان حاله يقول يجب أن يقال خطاب مر من هنا وهذا أثره وهذا توقيعي.. الطريق خاص.

وقت الفطور.. يقترب قدوم الرقيب برفقة جنديين وعاملين آسيويين بقميصيهما الأبيضين وقبعتيهما البرجيتين، مظهر العاملين بلباسهما الأبيض يوحي بنظافة الأكل وجودة الخدمة المقدمة وقت تسليم الوجبات، لكن مظهرهما أبدًا لا يعكس ذلك الطعام جودته الرديئة جدًا والقليلة، الأواني متسخة ويزيد ذلك عدم استخدام العاملين أية وسيلة من وسائل النظافة مثل استخدام قفازات اليد.

على غير العادة يأتي الرقيب ومعه أحد الجنود قبل الوقت المعتاد وبدون عاملَيْ المطبخ، والغريب في الأمر أيضًا بدون أسلحتهما التي اعتاد خطاب رؤيتها في أيديهما طوال الوقت يطلق عليها M16.

الرقيب: السلام عليكم

خطاب: وعليكم السلام

الرقيب: هناك أخبار جديدة.. وصلنا توًا خبر مفاجئ.. غدًا موعد محاكمتك في القضية الثانية.

خطاب: لكن..... اليوم عندما سمح لي بالاتصال في الصباح تواصلت مع والدي وهو يؤكد أنه لا توجد محاكمة ولم يتخذ قرار حتى الآن، بل بالعكس المسؤولون إلى اليوم يطمئنون والدي أن الموضوع لن يحال على القضاء والمحاكمة.

الرقيب: لا أعلم.. هذا ما وصلني ودعك جاهزًا غدًا........ ينصرف الرقيب.

يرجع خطاب ويسدل رأسه في مقدمة فراشه وصدمة الخبر ما زال مفعولها يسري وأعراضها ما زالت واضحة على وجه خطاب. متمتمًا وبصوت مرتفع ويه نوع من الحدة خطاب يحاور نفسه:

أين تلك الوعود بعدم إحالة القضية على القضاء! كلها وعود كاذبة زائفة مثل زيف وطنية أصحابها، مثل زيف نهضتها المباركة.. مثل زيف حكومتنا الرشيدة.. مثل زيف إعلامها المسيس.. المسير.. المسخر لخدمة السلطة لا أكثر، نعم إنها هالة إعلامية زائفة.. مجرد فقاعات لا تجدي شيئًا.

خطاب يسكت فجأة.. يخيم عليه صمت لعدة ثوان ثم ينهض مباشرة، بصوت مرتفع يصرخ وهو يمشي بتثاقل حول الزنزانة: كل شيء في بلادي مزيف.. كل شيء.. كل شيء، يجبروننا أن نحتفل بالعيد الوطني وهو ليس عيدًا للوطن، يجبرونا منذ نعومة أظفارنا أن نردد دعاءً للحاكم كل صباح بدل أن نردد نشيدًا وطنيًا..

كل شيء له.. كل شيء بمرسوم!

يتذكر هنا خطاب عدة أبيات من قصائد شاعر الرومنسية والعروبة نزار قباني:

حين تصير خوذة كالرب في السماء

تصنع بالعباد ما تشاء

تمعسهم تهرسهم

تميتهم تبعثهم

تصنع بالعباد ما تشاء

حين يصير الحكم في مدينةٍ

نوعًا من البغاء

ويصبح التاريخ في مدينةٍ

ممسحةً والفكر كالحذاء

حين تصير نسمة الهواء

تأتي بمرسومٍ من السلطان

وحبة القمح التي نأكلها

تأتي بمرسوم من السلطان

وقطرة الماء التي نشربها

تأتي بمرسوم من السلطان

حين تصير أمة بأسرها

ماشية تعلف في زريبة السلطان

يختنق الأطفال في أرحامهم

وتجهض النساء

وتسقط الشمس على ساحاتنا

منشفة سوداء

الساعة السابعة صباحًا.. خطاب يغير ملابس السجن ويلبس الدشداشة والعمامة منتظرًا أصفاد الحديد، تصل أصفاد الحديد برفقة الرقيب وثلاثة جنود باللباس الأسود، كالمعتاد يستقبلهما بالمكتب الخارجي رجلان بالزي المدني اعتاد خطاب شكليهما. في كل المرات التي يذهب فيها خطاب إلى المحكمة الرجلان نفساهما تقريبًا يأخذانه ولا يفرق بينهما إلا ملامح وجهيهما.

في المحكمة في إحدى القاعات برفقة رجل الأمن، خطاب ينتظر دوره للدخول إلى قفص الاتهام وقد علم أن المحاكمة فردية وسرية، ولا يسمح بالحضور إلا للأقارب فقط من الدرجة الأولى.. لكن لن يحضر أحد من أهله لأنه لا علم لأحد بالمحاكمة.

في حوار مع رجل الأمن:

رجل الأمن: هل هذه جلستك الأولى؟

خطاب: نعم.

رجل الأمن: لكنني رأيتك هنا في المحكمة عدة مرات.

خطاب: نعم صحيح تلك قضية أخرى.. قضية التجمهر إذا سمعت عنها.

خطاب يسخر من نفسه سرًا: كيف إذا سمع عنها وهو رجل أمن.. ومن سبب مصائبنا غيرهم!؟

رجل الأمن: فما نوع هذه القضية الآن؟

خطاب: كيف تسألني وأنتم رجال الأمن تعرفون كل ما يفعله المواطن! كم لترًا من الماء يشرب.. وكم كمية الهواء التي يتنفسها يوميًا! نعم نعم.. أمن البلاد وسلامتها يحتاجان إلى الكثير من الجهد ومن باب الاحترام أنك سألتني سأجيبك:

طوال فترة التحقيق في المكان المجهول كانت التحقيقات تدور حول نيتنا إنشاء تنظيم لقلب الحكم وتعاوننا مع منظمات وأجندة خارجية، وبعد رجوعنا إلى السجن المعلوم ومضي ثلاثة أسابيع هناك لا أدري ما حدث لكن.. حدث خلاف ما كنت متوقعه من تهم كانت يمكن أن تنسب إلي، حيث أن التهم الآن هي:

- الإعابة بالذات الملكية
- والتقليل من هيبة الدولة
- استخدام الشبكة المعلوماتية للإخلال بالنظام العام
- استخدام الشبكة المعلوماتية في السب والقذف

بعد مضي أكثر من أربع ساعات انتظارًا، يتوجه خطاب برفقة رجل الأمن إلى قاعة المحكمة حسب ما يعتقد، يفاجأ خطاب عندما يدخل أنها ليست قاعة محكمة بل مكتب رئيس المحكمة الابتدائية، رجل طويل القامة.. مشرب وجهه بالحمرة.. خفيف اللحية.. يصارع سنواته الأخيرة من عمر الشباب.

بعد التحية وضح رئيس المحكمة لخطاب الأمر:

أنت هنا لننظر في موضوع حبسك الاحتياطي.. هل سيتم الافراج عنك بكفالة أم سنمدد لك الفترة مرة أخرى.

خطاب: وما هي الشروط التي ستحدد ذلك؟

القاضي: ظروفك المالية والاجتماعية.

يستمر خطاب في الحديث لمدة لا تزيد على خمس دقائق ثم يخرج.

تبدأ معاناة جديدة.. المصير المجهول.. حديث النفس.. الوقت يطول ومضى حتى الآن أكثر من ساعتين وخطاب ما زال ينتظر خبر مصيره برفقة رجل الأمن. تستمر المعاناة والأفكار تتوالى بكثرة.. ألف فكرة و فكرة تدور في عقل خطاب.. حصار تام.

ينهض خطاب من مكانه وعلى وجهه علامات الغضب الشديد وهو يتمتم بكلام حاد غير مفهوم، رجل الأمن ينهض ويتجه خارج القاعة ويقفل خلفه الباب، يرجع رجل الأمن ـ خطاب لا توجد أخبار جديدة حتى الآن لكن يمكن

أن تصلي الظهر والعصر جمعًا فأذان العصر قد أذن قبل نصف ساعة.

خطاب يتوضأ ويصلي.. يرجع إلى وضع الانتظار مرة أخرى. بعد مضي وقت طويل يخرج رجل الأمن لتقصي الجديد من الأخبار، لكن هذه المرة يرجع حاملًا ثلاثة أكياس ـ خطاب أذان المغرب قد أذن.. إفطار.

بعد مضي ساعة تقريبًا من الانتهاء من الفطور، تبدأ علامات انتهاء المصير المجهول، طرقًا على الباب.. رجل أمن آخر.. إيماءة منه يفهم رجل الأمن الآخر الذي برفقة خطاب أنه حان وقت الرحيل.

خطاب في المقعد الخلفي من سيارة الـYukon برفقة الأصفاد والسلسلة الحديدية ورجل الأمن، سيارة شرطة في الأمام.. سيارة شرطة في الخلف، الشارع مزدحم، وي وي.. وي وي.. سيارة الشرطة التي في الأمام تخترق الزحمة وكذلك السيارات التي في الخلف.

السؤال القديم يعود من جديد إلى عقل خطاب.. إلى أين؟

إن حرية التعبير والكلام والمعتقد مضمونة لجميع فئات الشعب..

..ويستطيع أي مواطن عربي في أي بلد عربي أن يدخل على أي مسؤول ويقول ما يشاء

و لكن متى يخرج فهذه مسألة أخرى..

محمد الماغوط

إهدار الآدمية

تتوقف سيارة الـYukon أمام أحد مراكز شرطة العاصمة في إحدى ولاياتها الحدودية...

«انزل»

ينزل خطاب وهو مدهوش.. كل ما يدور حوله يقول إنه لن يفرج عنه وسيسجن هنا!

خطاب يكلم نفسه: لا لا مستحيل هنا.. الموضوع فيه خطأ.. مستحيل.. أفضل الرجوع إلى أحد السجون السابقة ولا أسجن هنا.

على الرغم من أن خطابًا لم يسجن قط سابقًا في أي مركز شرطة، لكن بسبب سوء المكان والمساجين الذين يسجنون فيه سمع خطاب مثل ما سمع الجميع الأخبار المتداولة على ألسنة الناس التي أصبحت مثل القصص المعروفة والمنتشرة.

يدخل خطاب ورجال الأمن برفقته أحدهما أمامه والآخر خلفه وأصفاد الحديد في يده، بعد الانتهاء من أخذ البيانات عن طريق ضابط المركز المناوب، خطاب طلب إجراء اتصال واحد فقط قبل دخول الحبس وسمح له بالاتصال.

يُفتح الباب بعد جهد غير طبيعي بذله الشرطي في فتح القفل الكبير، وأول ما يستقبله خطاب بعد فتح الباب الأصوات الصاخبة والرائحة النتنة والكريهة جدًا جدًا.

بثقل يخطو خطاب خطوتين إلى الداخل.. تصبح الرؤية ضبابية.. يحاول التركيز لكن دون جدوى.. يقفل الشرطي الباب وبضجيجه يخرج خطاب من انتكاسته من القاع المظلم.

سهام أعين لا تحصى.. بدأت الجدران تضيق على خطاب.. ممر وحيد عن يساره عرضه خمسون سنتميترًا والجثث مكدسة على طوله.. عن يمينه صنبور ماء للغسل وأمامه دورتا مياه لا يمكن وصفهما.

خطاب يحاول تجاهل كل تلك الأعين ويتخطى الجثث الهامدة ليستكشف المكان أكثر.. خمس زنزانات

طول كل واحدة فقط متران وكذلك العرض.. عدد المساجين يتجاوز الثلاثة والثلاثين سجينًا، كل عبارات القبح لا يمكن أن تصف ذلك القبر النتن.. وكل عبارات القذارة بكل ما تحمله من معنى لايمكن أن تلامس وصف المكان.. لا توجد حتى فتحة تهوية واحدة.

يبدأ الحوار الفضولي من قبل خطاب أو تستطيع أن تطلق عليه أولى خطوات التكيف مع المكان

السلام عليكم.. ما هي أخباركم؟

يحاول خطاب عدم جرح مشاعر أحدهم بأسئلته.. من بقي على وعيه.. أسئلة كثيرة أيضًا تنهال عليه

ماهي قضيتك؟ من أين أنت؟ ما هو اسمك؟

أحس خطاب أنه غير مقبول.. وغير مرحب به من غالبيتهم في بداية الأمر لكن دون أن يعرف السبب، اكتشف بعد أيام أن السبب هو توجس المساجين خيفة من خطاب حيث أن شكله لا يوحي بأنه مجرم مثل ما صرح أحد المساجين بعد ذلك، لذا أطلق عليه دون أن يعرف لقب CID وتعني مخبرًا.

الزنزانة الثالثة.. هي الزنزانة الأنظف حسب مقاييس السجن، يخرج منها سجين متوسط الطول والكتفين.. طويل شعر الرأس وكث اللحية والشاربين.. يختلط شعر رأسه بشعر لحيته والأخير بشاربيه أيضًا.. يتبين بعد ذلك أنه زعيم السجن واسمه «زاهر».

بلهجة استهجان ـ خطاب السياسي تعال سأريك أين تنام ـ «السياسي» اللقب الذي اشتهر به خطاب داخل السجن بعد ذلك ـ يلحقه خطاب إلى الزنزانة الخامسة. . كل المساجين في هذه الزنزانة من جنسية آسيوية واحدة.

زاهر: «نم هنا» وهو يشير بيده إلى مكان لا يتجاوز طوله المتر ونصف المتر. . وعرضه لا يتجاوز الثلاثين سنتيمترًا. . الأرضية إسمنتية مجهولة اللون من شدة اتساخها

خطاب يرد متعجبًا: أين!!؟

زاهر: حاول أن تنام جانبًا، اتبعني ستأخذ بطانيتك.

يدخل زاهر إلى الزنزانة التي ينام فيها وينشل بطانية من الأرض تستخدم كأرضية! كل كلمات القذارة تتوقف هنا. . لا توجد كلمة تصف تلك البطانية.

يأخذ خطاب البطانية على مضض ويتجه إلى الزنزانة الخامسة ويضع البطانية حيث مكان نومه، يتذكر أنه لم يصلِّ المغرب والعشاء. . يتجه ليتوضأ. . لا يوجد مكان للصلاة!

بعد كل أسابيع الاعتقال التي مضت، خطاب تعلم دروسًا كثيرة أهمها أن كل معتقل يمتلك مبادئ ثابتة وحقيقية قادر على الثبات والتكيف والصبر في أقسى الظروف.

خطاب يتكيف ويصلي. . والآن حان وقت التكيف للنوم، بعد عناء يتكيف مساحةً. . لكن فكرة مصيره

المجهول ما زالت تتردد في رأسه ـ إلى متى سأبقى هنا عالقًا ومقهورًا حيث إهدار الآدمية بكل معانيها.

يتردد حديث النفس كضرب مسمار.. يفشل حتى الآن في التكيف والأفكار تتغلب عليه، يستسلم.. ينهض ويتجه إلى الزنزانة الرابعة لأن الإنارة ما زالت موجودة ـ لعلي أجد هنا أحدًا أستطيع أن أتكلم معه.

يجد شخصين ما زالا على وعيهما يتحادثان، يجلس خطاب بجانبهما ويبدأ معهما حوارًا يمتد حتى وقت السحور.. تتجه مجموعة من المساجين بقيادة زاهر يجلبون السحور من عند الباب ويقومون بتوزيعه على الزنزانات، كل زنزانة نصيبها صحن أرز مع قطع بلاستيكية شكلها وطعمها مثل قطع اللحم، تستمر نجاحات خطاب النسبية في التكيف إذ يأكل الأرز مشاركًا خمسة آخرين في صحن واحد.

تسير الأيام بتباطؤ.. يستطيع فيها خطاب بناء صداقة قويه مع أحد المساجين يقاربه في العمر اسمه «عبدالله»، تبين أنه تاجر كان يتعاطى المخدرات سابقًا، وهو مسجون الآن لأنه قام بعدة عمليات سرقة.. والدافع وراء تلك السرقات هو توفير المال لشراء المخدرات.

وقد طرد عبدالله بسبب المخدرات من وظيفته المرموقة فباع بيته وجميع سياراته.

بدأ خطاب يبالغ في تكيفه، بمساعدة عبدالله يحاول التعمق أكثر في بيئة السجن، يكتشف خطاب أن السبب

وراء دخول كل المساجين غير الأجانب السجن هو المخدرات سواء بالتجارة أو تعاطيها أو كانت دافعًا وراء السرقة أوالاغتصاب أو حتى القتل، وهذا هو زاهر زعيم السجن تهمته هي ضرب إمام مسجد واغتصاب زوجته وهو الآن يحاكم، ويعتبر من أكبر تجار المخدرات في ولايته.

صورة حزينة ومضحكة في الوقت نفسه تتكرر كل مغرب، تصارع (الجرداوية) ـ هو اسم محلي متعارف عليه بين متعاطي المخدرات ـ من أجل أنواع من الأقراص تقوم الشرطة يوميًا بتوزيعها عليهم. . أقراص مختلفة الألوان والأشكال والمفعول بعضها مهدئ للأعصاب وبعضها منشط وبعضها منوم.

من يتخلف عن الصورة الحيوانية هذه هم فقط الأجانب وعبدالله. . ويؤكد عبدالله أنه منذ دخل هنا إلى الآن منذ أكثر من شهرين لم يتناول حبة من هذه الأقراص ولم يتعاطَ المخدر قط أيضًا ـ لأنهم يهربون المخدرات أحيانًا بوسائلهم الغريبة ـ وأنه نادم كل الندم على الماضي وينوي التغيير.

ويؤكد عبدالله دائمًا لخطاب أن عدد المتعاطين كبير وفي تزايد مستمر، على رغم غلاء المخدرات حيث تكلفة التعاطي للمرة الواحدة لا تقل عن خمسة وثلاثين دولارًا وبعض المدمنين يتعاطون في اليوم ما يزيد على خمس مرات.

والمحزن وجود مدمن في السجن عمرة ستة عشر

عامًا فقط! والمحزن أكثر عدد النساء المدمنات الكبير مثل ما يؤكد عبدالله عندما كان تاجرًا قد تعرف عليهن وبعضهن من أسر مرموقة.

تبادر إلى ذهن خطاب سؤال بديهي بينما كان عبدالله يحدثه:

خطاب: في رأيك ما هو السبب وراء انتشار تجارة المخدرات بهذا القدر الواسع والمخيف؟

عبدالله: بالمختصر ومن الآخر كما يقال.. تواطؤ الشرطة مع التجار وخصوصًا بعض التجار الذين لهم نفوذ كبير في الدولة لوجود السواحل الممتدة والطويلة والمفتوحة على مصراعيها دون رقابة حقيقية وواضحة وصارمة.

لكن أغرب حالة في السجن لفتت انتباه خطاب هي أحد المساجين واسمه «علي» وهو متهم بقضية سرقة وكان الدافع وراء ذلك كما أوضح، هو توفير المال لشراء المخدرات والتعاطي أيضًا.

علي شخصية محبوبة ومحترمة في السجن.. حامل شهادة جامعية في الهندسة.. عمل سابقًا قبل أن يطرد في السلك العسكري.. متعدد المواهب وصاحب حنجرة ذهبية في قراءة القرآن والغناء.

خطاب: علي... لماذا ما زلت مستمرًا في هذا الطريق.. متى تفكر في العودة إلى الطريق الصحيح؟

علي: كيف أعود ومستقبلي قد انتهى؟.. خطأ وقعت

به من باب التجربة.. كلفني كل جهد عمري سابقًا ومستقبلًا.. الله سبحانه وتعالى يغفر جبالًا من الذنوب.. وفي وطني لزلة بسيطة انتهى مستقبلي ولم أعد أستطيع العمل في أي مكان.. كيف تريدني أن أستمر في العيش بشكل طبيعي وأنا أشعر أن كل من حولي يرفضني.. المجتمع والحكومة.

بعد أسبوع وفي صباح باكر لم ينم خطاب طوال تلك الليلة بعد حديث شيق وطويل مع مجموعة من المساجين، كان مستلقيًا على ظهره وعينه في السقف يفكر في المجهول، فجأة يبدأ بالضحك بشكل هستيري وهو يكلم نفسه ـ هل تخيلت يومًا يا خطاب أن تنام ملاصقًا رجلين من متعاطي المخدرات!؟.. شكرًا على هذه التجربة المغرية.....

يقاطعه نداء من أحد رجال شرطة المركز من خلف قضبان فتحة الباب الحديدي ـ خطاب استعد ستذهب إلى المحكمة.

يستعد خطاب ويلبس الدشداشة والمصر القذرين.. تملأهما البقع والأوساخ.. ويخرج مستقبلًا رجال الأمن بلحيته الكثيفة والهالتين السوداوين تحت عينيه.

ملعون في دين الرحمن.. من يسجن شعبًا.. من يخنق فكرًا..

.. من يرفع سوطًا.. من يُسكت رأيًا.. من يبني سجنًا

من يرفع رايات الطغيان.. ملعون في كل الأديان..
من يُهدر حق الإنسان..

.. حتى لو صلّى أو زكّى وعاش العُمرَ مع القرآن

جمال الدين الأفغاني

المحكمة مسيسة

محكمة سرية.. إلى يمين القاضي خطاب في قفص الاتهام.. أمام القفص يقف محامي الدفاع.. عدم حيادية المحكمة وتسييسها هذا ما استقر في ذهن خطاب من أول وهلة.. الصورة التي أمام خطاب لا تقول غير ذلك.. خصم خطاب يجلس جانب القاضي.

القاضي: هل أنت خطاب؟

خطاب: نعم.

القاضي: أنت متهم بأربع تهم.. الإعابة بالذات الملكية والتقليل من هيبة الدولة واستخدام الشبكة المعلوماتية للإخلال بالنظام العام واستخدام الشبكة المعلوماتية في السب والقذف.. ما هو ردك؟

خطاب: أنا أنكر كل التهم وبريء منها كبراءة الذئب من دم يوسف وكبراءة يوسف من مراودة امرأة العزيز.

القاضي: أنت كتبت في مدونتك وأعبت بذات الملك وهذه إحدى عباراتك المسيئة

«الحق أبلج والباطل لجلج.. ومصيركم النار»

خطاب: نعم كتبت هذه العبارة وكانت عنوانًا لأحد المقالات.. أين الإعابة هنا؟

أنا في هذا المقال تحدثت عن الاستبداد بشكل عام وعلاقة المستبد بالمستبد به والعكس ولم أذكر الملك ولا الدولة بتاتًا في مقالي ولم أسئ إليهما لا تصريحًا ولا تلميحًا.

القاضي: رفعت الجلسة.

يخرج خطاب ويستقبله رجل الأمن ويتجه به إلى إحدى قاعات المحكمة غير المستغلة كما هي العادة منتظرًا جلسة نطق الحكم في قضية التجمهر، العجيب في هذه القضية أنه مر عليها سابقًا قاضيان وكلاهما تنحى لأسباب مجهولة واليوم هي الجلسة السادسة مع قاضٍ جديد سينطق بالحكم فيها!.

جميع المتهمين الأحد عشر في قفص الاتهام.. ينتظرون القاضي حتى ينطق بالحكم.. البراءة دون شك.. لأن جميع المداولات في الجلسات السابقة وما حدث فيها من أحداث ومرافعات وشهادات الشهود تؤكد قطعًا أن الحكم هو البراءة.

القاضي:

القاعة تهتز.. صراخ من كل جهة.. من القفص.. الحضور.. حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل

بعد الصاعقة الكبيرة التي نزلت على خطاب ورفاقه والحضور من الأهالي والأصدقاء والمتابعين للقضية من أعضاء البرلمان وصحفيين وحقوقيين حدث شيء جميل أنسى خطابًا ألم تلك الصدمة.. تم اقتياد خطاب ورفاقه من الرجال من القفص إلى إحدى الزنزانات بالمحكمة.. وهنا حدث ما كان غير متوقع وبعيدًا عن الحسابات.. خطاب يلتقي في الزنزانة نفسها رفاقه الآخرين المتهمين معه في قضية الإعابة.

أكثر من سبعين يومًا لم ير بعضهم بعضًا.. كانت تصل إلى خطاب بعض الأخبار المتقطعة عنهم عندما كانوا في السجن المعلوم بمساعدة بعض الجنود. مشاعر غريبة.. أحضان شوق.. عناق طويل.

بعد مرور ساعة من الزمن.. يحدث الأجمل على الإطلاق.. أحد الضباط يتقدم إلى باب الزنزانة ويعلن أن

الجميع سيتم نقلهم إلى السجن المعلوم وسيسجن الجميع في مكان واحد! . يتم اقتياد الجميع من الزنزانة إلى الباص بشكل ثنائي تجمعهم الأصفاد.

في الباص يرتفع الصوت.. خطاب لا يستطيع الجلوس على مقعده.. شوقه الكبير إلى أصدقائه يمنعه من الانتظار والصبر حتى يصلوا إلى السجن ويبدؤوا الحديث بحرية أكثر.. يحاول الحديث مع الجميع في آن واحد كأنه يخاف أن يفقد أحدًا منهم مرة أخرى ولم يتمكن من الحديث معه!

أقرب وصف لهذا المشهد هو مشهد الإنسان المنقطع في الصحراء دون طعام لأيام.. وفجأة يجد طعامًا أمامه.

وصل الجميع إلى السجن وكثرت الأسئلة وزادت الحوارات الثنائية منها والجماعية.. وأهم الأسئلة كانت تدور حول عدد أيام الاعتقال وأين اعتقل كل واحد منهم؟ وبعض تفاصيل التحقيق.

مع الأيام.. اتضح لخطاب ما كان مغيبًا عنه.. عدد المعتقلين وأسماؤهم وأنواع قضاياهم ونوع الأحكام التي صدرت بحقهم.. تبين أنه تم اعتقال عدد كبير من المدونين والكتاب الناشطين حقوقيًا وسياسيًا بعد اعتقال خطاب، ومجموع من تم اعتقالهم من الجنسين قرابة سبعة وثلاثين معتقلًا توزعوا على قضيتين وهما التجمهر والإعابة.. أما خطاب وأربعة من رفاقه فقد نالوا النصيب الأعلى.. حيث تم الزج بهم في القضيتين.. التجمهر والإعابة.

وأهم ما تبين لخطاب هو ورفقاؤه الأحد عشر الموجودون معه الآن في السجن ـ وهم المجموعة التي بدأت بهم موجة الاعتقالات وغالبيتهم يتعدى الخمسة والسبعين يومًا من بداية اعتقاله حتى الآن والبعض تجاوز التسعين يومًا، على الرغم من أنه تم اعتقال مجموعه كبيرة بعدهم وتمت محاكمتهم سريعًا وكان نصيبهم السجن لمدة سنة مع الغرامة المالية وقدرها ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار ـ كاد يزج بهم في قضية تأسيس تنظيم داخلي وخارجي لقلب النظام والتعاون مع تنظيمات خارجية مثل الإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة والعمل بأجندة خارجية هدفها خلخلة النظام العام عن طريق التحريض، وهذا ما كان مخططًا له، لكن. . في آخر اللحظات تم تغيير التهم إلى تهم أخرى، لذا تغير اسم القضية من قضية قلب النظام إلى قضية إعابة.

في بداية الأيام أيضًا. . تم تعيين أمير للسجن وأهل الحل والعقد بالتشاور وعمل جدول للنظافة وجدول للجلسات النقاشية وتدبر القرآن، وتم الاتفاق على أن آلية اتخاذ القرار هي قرار الغالبية فتم اتخاذ قرار بتحديد وقت النوم الذي يجب على الجميع أن يكونوا فيه صامتين ما عدا الهمس الجانبي، وفي خلال هذه الأيام أيضًا استأنف خطاب ورفاقه قضية التجمهر.

رمضان على مشارف الانتهاء وعيد الفطر على الأبواب! ما أصعبه من موقف على خطاب ورفاقه. . وما أشده صعوبة أكثر على أسرة خطاب وبقية الأسر، أن العيد

سيمضي حزينًا لأنه لن يجد من يفرح به بل العكس سيكون شؤمًا على جميع أسر المعتقلين.

قبل العيد.. خطاب ورفاقه يعزمون على عدم الانكسار والتراخي نتيجة هذا الموقف الكئيب والمحزن إذ اتفقوا فيما بينهم على رفع همتهم وإرادتهم أن يصلوا صلاة العيد في السجن والاحتفال بعد ذلك.. إنشادًا.. غناءً.. رقصات شعبية.

ولم تغب روح الدعابة والمرح عن خطاب ورفاقه رغم شدة الموقف، فانتشرت فيما بينهم ابتسامة كان لها أثر كبير في تخفيف المعاناة بشكل عجيب، فكل واحد منهم يسأل الآخر كم عمرك؟ وإذا قال ثلاثون سنة فيرد الآخر مر عليك إذن ستون عيدًا قضيتها جميعًا في البيت.. فلا ضير أن تقضي عيدًا واحدًا بعيدًا عن البيت ولا يساوي شيئًا!

بعد عشرين يومًا جاء موعد الجلسة الثانية في قضية الإعابة وفي هذا اليوم افترق الرفاق مرة ثانية، القاضي يوافق على إخراج خطاب وخمسة من رفاقه بكفالة مالية وشخصية ويرفض طلب الستة الآخرين دون أن يُعرف السبب مع العلم أن التهم نفسها!، والشيء الغريب الآخر هو المبلغ المختلف والأعلى عن الآخرين الذي حدده القاضي على خطاب ليدفعه للخروج بالكفالة وقدره عشرة آلاف وخمسمائة دولار.

في الجلسة الثالثة تم الإفراج عن البقية بكفالة مالية وشخصية أيضًا وحكم على المجموعة كلها بالسجن لمدد

تراوح من سنة إلى السنة والنصف وكان نصيب خطاب سنة ونصف سنة.

كلتا القضيتين في محكمة الاستئناف وما زال الضغط السلطوي التعسفي مستمرًا لتسييس المداولات والحكم، ومن الجهة المقابلة أيضًا اعتذار بعض القضاة الشرفاء عن تولي القضيتين مستمر أيضًا.

أن تنادي السلطة بالإصلاح أمر يثير الدهشة بل السخرية..

..إذ ما الذي يمنعك أيتها السلطة من تنفيذ ما تنادين به

..وفي يدك كل أدوات الحل والعقد!

د. جلال أمين

خارج النص

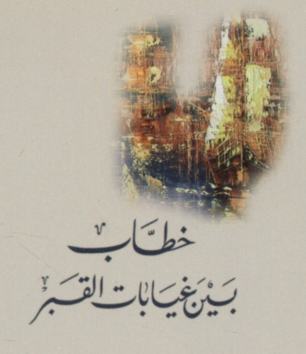
رسالة إلى من بيده الأمر.. لتغيير الأمر لكي لا يحدث الأمَر، رياحُ التغيير قادمة.. قادمة.. بنا أو بغيرنا، شئنا أم أبينا، فلنختر موضعنا من هذه الرياح، هل نكون جزءًا منها، أم نقف عقبة أمامها لتجرفنا، أم نظل طوال عمرنا هاربين منها.

التعريف بالكاتب:

محمد خليفة الفزاري ناشط حقوقي ومدون وكاتب

للتواصل: 0096895886609

mkalfazari@gmail.com



خطّاب
بين غيابات القبر

"أمام قضبان شباك الباب الحديدي خطاب يقف متأملا في روعة السماء وهي تودع سهام الشمس الحارقة ومستقبلة خصل الهواء الباردة، التي بدأت تغازل وجه خطاب بكل رقه ولين، يرضخ خطاب مستسلما لتلك الإغراءات ليبحر معها بعيدا إلى شاطئ جزيرة في أقاصي الذكريات الجميلة.. ذكرى مرت عليها سنوات ومضت عليها أزمان، ذكرى لم يمكن أن تُنسى وتختفي بسهولة لأنها في ذاكرة خطاب منقوشة بأظافر حب وعشق.. "أحبك" أول مرة يتلذذ سمعه بها وهي تفارق ثغرها اللافح القرمزي.. "قبلة" على شفتيها المملوءتين أنوثة وإغراءات، خطاب يجد نفسه يلتهمهما التهاما كأن لسان حاله يقول يجب أن يقال خطاب مر من هنا وهذا أثره وهذا توقيعي.. الطريق خاص"



ISBN 978-614-404-389-9


9 786144 043899